قراءة في كتاب

«ثقافة أوروبّا وبربريّتُها» لإدْغار مُوران

■ شهرزاد حمدي [1]

ملخّص

الهدف من هذه القراءة التحليلية والنقدية لكتاب: « ثقافة أوروبا وبربريتها» للفيلسوف «إدغار موران»، هو الكشف عن الوجه الحقيقي للثقافة الأوروبيَّة، وكيف تميّزت بالبربريّة، وأنَّهـا لم تكُن مُخلِصة لمبادئها التَّنويريّة، كما تدّعي أو يُدّعى لها؟ من خلال شـهادة من الدَّاخل الأوربي. وقد اعتمدنا في هذه القراءة، المنهجين: التَّحليلي والنَّقدي.

ومـن أهمّ النّتائج أو الحقائق التي تمّ الكشـف عنها من خـلال هذه القراءة، هو طغيان النزعة الاسـتعمارية والاسـتعلائية في الثَّقافة الأوروبيَّة، والرغبة الجامحة الكامنة في ذهن أصحابها، لفرض آرائها وفكرها ومنطقها عن طريق القوة والسـيّطرة، رغم ادعائهم النّزعة الإنسانيّة، والتخفي وراء شعار الدّفاع عن حقوق الإنسان والقيم الإنسانيّة العالميّة!؟

لذلك، لابدّ من استفاقة العقل العربي من أكذوبة: «إنسانية أوروبا الخالِصة»، والاستفادة من النقد الذّاتي الذي مارسه هذا الفيلسوف وعالم الاجتماع الفرنسي، مع التركيز على بناء الذّات، وتطوير البِنى التّحتيّة، تحسُّبًا لأيّ هُجوم أوروبي، سواء كان ماديًّا أو ثقافيًّا رمزيًّا

الكلمات المفتاحية: الثَّقافة الأوروبيَّة- البربريّة- النَّزعة الإنسيّة- الاعتراف- الفكر المُركّب.

1 - باحثة دكتوراه في جامعة محمد لمين دباغين سطيف2، الجزائر.

بطاقة الكتاب

عنوان الكتاب: ثقافة أوروبا وبربريتها (Culture et barbari européennes)
مُؤلّف الكتاب: إدغار موران
المُترجم: محمد الهلالي
الناشر: دار تبقال للنشر: الدار البيضاء – المغرب
الصفحات: 64 صفحة
سنة النشر: ط-1 2007م

مقدمة

تعتبر الثَّقافة الأوروبيَّة اليوم من أكثر الثقافات العالميّة إثارة للجدل، ما يبعث على نَسج مُختلف المواقِف منها وحولها، وذلك مردُّه إلى طبيعة تصوّراتها ومفاهيمها وإجراءاتها العَمليَّة، وحقيقة مُمارساتها، خاصَّة مع الآخر المُختلِف. فعلى الرَّغم من تَشكُّل مرحلة الحداثة Modernism على مبادئ أهمّها المركزيّة الإنسانيّة، فقد بَدَت تنويريّة رَحِبة، تضمُّ الجميعَ باسم الحقِّ في الحياة، والحقِّ في التعلُّم، وحقِّ التّعبير عن الرّأي. إلَّا أنَّ القرن العشرين كشفَ عن خيبة أمل ونُكوص واضِح لهذه المبادىء والمُنطلقات، وفَضَح المُتواريات والخلفيات الحقيقيّة، حيث قدَّم لنا الثَّقافة الأوروبيَّة بوصْفها ثقافة بربرية استعمارية، لها وجهها المُظلم الإقصائيّ.

وقد سجَّلت الفلسفة، - باعتبارها نمطًا مُميّزا من التّفكير- عِدّة رؤى بمقولاتها وأدواتها المنهجية، منها ما تضمَّنَ تفصيلات لهذه البربريّة الأوروبيَّة، ومن أبرزها ما طرحه الفيلسوف الفرنسيّ وعالم الاجتماع المعاصر «إدغار موران»(Edgar Morin 1921م)، وِفق ما يقتضيه الفكر المُركبComplexe

thought، وأنموذج التعقيدcomplexity Pradigme of في كتابه المُعنّون بـ: «ثقافة أوروبا وبربريتها» الذي يُشـكّلُ موضوع هذه القراءة، ما يجعنا نطرح السّؤال التالي: كيف شكّلت الثّقافة الأوروبيَّة انبثاقًا مُستمرًّا للبربريّة؟ فيمَ تتمثّل قراءة «موران» التعقيدية لهذه الثقافة؟ وما الذي يُنتظر من المفكر والإنسان العربي فعله تُجاه هذه البربريّة، بوعي ومسؤولية؟

الكتاب

بعد أن وقفناعلى الهوية الخارجية للكتاب، تأتي مرحلة بحث ومُناقشة الهُوّية الدّاخلية له، وما احتواه من أفكار، والتي تتطلّب مُقاربات التّحليل والنّقد والاسـتنتاج.

المطلب الأول: مُناسَبة الكتاب والحاجة لتأليفه

بعد أن سَيطرَ فكر التّبسيط، بما تضمَّنه من إجراء الفصل والاختزال لمُدّة ثلاثة قُرون (من القرن السابع عشر إلى القرن التاسع عشر)، بدأت نتائجها السّلبيّة وتداعياتها المُتأزّمة تنبثِق مع القرن العشرين، حينمَا طَغَت العُلوم التجريبيّة واسـتفحلت، وأصبحت هي المُحدّد الأسـاسي لرؤية العالَم الخاصَّة بالإنسان الحديث.

حيـث تمَّ الفصلُ بين مُختلف المعارف والتخصّصات، وتسـيّدت نزعة تفاضُليّة، كرَّسـت لمركزيّة العقلانيّة وهمّشـت كلّ الأشـكال المعرفية الأخرى، التي تُعدُّ من جواهر الإنسـان. على هذه الشَّاكِلة، يُقرُّ «موران» في إطار قراءته وتحليلاته النّقدية للحقل الفلسـفي والإبستمولوجي والعِلمي والمنهجي المعاصر، بتكلُّس المنظومة التَّبسيطيَّة وهيّمنتها على صَعيد عِدّة مجالات، وجوديًّا ومنطقيًّا وإبستمولوجيًّا وأنثروبو-اجتماعيًّا وسياسيًّا،

لقد تقوّمت هذه المنظومة على كيانات مُغلقة، كالماهية والهوّية والسببية الخطّية، والذّات والموضوع. وعلى المُستوى الأنثروبو-اجتماعي والسياسي، أسّست للبراكسيس الغربي، الذي هو من ناحية مُنغلِق على ثقافته وعرقـه وذاته، ما إن يرتبِط الأمر بالذّات. (لأنه مَبني عـلى الإعجاب الذّاتي بالذّات، الفرد، الإنسـان، الأمة، العرق)، ومن ناحيـة ثانية، وبصِفة مُوازية لا ينقطِع عن المظهر الأول، فهو تسـخيري ويتّصِف بالبرودة الموضوعية حينمَا يتعلّق الأمر بالموضوع[1].

لقد انبنت الحداثة الغربية على منظومة التبسيط، التي امتدّت بعِدّة أبعاد، من بينها البُعد الأنثربو-

1 - موران، . 2001، ص -5 6

اجتماعي والسياسي، إذ جعلت من الفكر الغربي مُتمرّكزًا حول ذاته، له ثقافة نرجسية مُتعالية، لا يرى سِوى نفسه، ولا يعتدّ إلّا بفرده وإنسانه وأمّته وعرقه. يُضاف إلى ذلك، فالعقليةَ الغربية ليست موضوعية، ولا تتّسم بالحرارة إزاءها، فهي مُنغلقة على ذاتها وأسيرة مُقوّماتها، لا تنفتح على الموضوع معرفيًّا، ولا على الآخر وجوديًّا وقيميًّا. صَحيحٌ أنَّ الحضارةَ الأوروبيَّة المعاصرة، قد قطعت شوطًا كبيرًا في التقدّم والإنماء، وكشفت عن تحضُّر ومدنية، غير أنها وبفعل منطق تساوق التقدُّم – التقهّقر، فإنها تتراجَع أخلاقيًّا وإنسانيًّا، وتُظهر بربرية وتوحّشًا تمشّيًا ومُستجدات العصر، بمعنى بربريّة أنتجتها التقنيات، لتتحوّلَ إلى مُضاد للإنسانية. ففي الوقت الذي نتحضُّر فيه، فإنّنا ننغمس في التوحُّش والبربريّة، لنشهدَ بربريتين: بربرية معهودة، من اقتتال وحُروب دينيّة، عرقيّة وأهليّة، وبربريّة ماديّة تقنيّة.

من هُنا كان ذلك مُناسِبًا لكتابة هذا المُؤلّف والخوض في إشكاله، لأنَّ الإنسانيّة لم تُقلِع عن المُمارسات البربريّة، سواء في تفكيرها أو في عَمَلِها، بل إنّها تُعبِّر عن امتداد منها، آفِلٍ بالقيم والمُشاركات الوجوديّة الحيّة العابِرة لضيّق اللغة والتاريخ والعرق، وتتجلّى هذه البربريّة في الحضارة الأوروبيَّة المعاصرة.

المطلب الثاني: في تحليل ومُناقشة أفكار الكتاب

يقتضي منطق فهم الفكرة، أن نستدعي مُقاربات التّحليل والنِّقاش والنَّقد والاستنتاج، حتى نُعطيها حقّها الدلالي، وهذا بالضَبط ما نسعى إليه في خضمّ مناقشة أفكار كتاب: «ثقافة أوروبا وبربريتها»، الذي كتبه إدغار موران وِفق الفكر المُركّب وأنموذج التعقيد[1].

1 - التعقيد: «ما التعقيد؟ من أول وهلة نقول: إن التعقيد هو نسيج (Complexus) ما نسج، ككل من المكوّنات المتنافرة المجمّعة بشكل يتعذّر معه التفريق بينهما. إنه يطرح مفارقة الواحد والمتعدّد. ثانيًا، بالفعل إنَّ التعقيدَ هو نسيج من الأحداث والأفعال والتفاعلات والإرتدادات والتحدّيات والمصادفات، التي تُشكّل عالمنا الظاهراتي» إدغار موران، الفكر والمستقبل، مدخل إلى الفكر المُركّب، ص 17.

الفكر المُركّب: «»فكر مُنظّم ونسقي يتصوّر العلاقة الكلّ / الأجزاء، مثلمَا بدأ يتطوّر في عُلوم البيئة وعُلوم الأرض، فكر مبنيٌّ لا يعزل الموضوع المُراد دراسته، بل ينظر إليه من خِلالَ علاقته الذاتية والبيئية والتنظيمية مع محيطه الثقافي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي والطبيعي». إدغار موران، هل نسير إلى الهاوية؟ ص 60. وقد حدّد «موران» للفكر المركب ثلاثة مبادئ، هي: مبدأ السببية الدائريةCausalité récussivité، مبدأ الحوارية Dialogique، مبدأ الهولوغرامية.Hologrammique

1 - مُقتطفات من البربريّة الأوروبيَّة

يُصرِّح «موران» بأنه يودُّ الشُروع بتقديم لمحة مُختصرة عن أنثروبولوجيا البربريّة الإنسانيّة، حيث إنَّ فكرةَ الإنسان المُفكّر، الإنسان الصّانع، والإنسان الاقتصاديّ أو المُنتج بقيت ناقِصة. وبإمكان الإنسان المُفكِّر صاحِب الذّهن العقلانيّ، أن يكون في الوقت ذاته قادرًا على الهذيان والحُمق. والإنسان الصانع الذي يُتْقِن صناعة التّقانة، كان أيضًا قادرًا مُنذ اللحظات الأولى للإنسانية أن يُنتِج عِدّة أساطير لا تُحصى. ويُعدُّ الإنسانُ الاقتصاديّ الذي يُعرَّف بمُوجب مصلحته الشخصية، إنسان الاستهلاك واللعب والإنفاق، كمَا تطرَّق إليه «هويزينكا» مُنذ عُقود مَضَت. ينبغي أن ندمج هذه الخصائص المُتناقِضة ونعقد الصِلة فيمَا بينها. ففي أصل ما سـوف نُسمّيه البربريّة الإنسانيّة، يوجد على الأكيد جانب «الحُمق» المُنتج للهذيان والحقد والاحتقار، ولما كان اليونانيون يدعونه Hybris، أي الإفراط[1].

إنَّهُ التعقيد الإنساني وتركيبته الهائلة في التناقُض، التي ظلَّت تحمِل صورة ضبابيّة غير واضِحة وناقِصة غير مُكتملة. فهو ليس بعقلانيٍّ خالِص، بل يمُكنه إنتاج الحَمَاقة والهُراء، وليس بالتّقني الذي لا يصنع سِـوى التّقنيات، إنَّما يُنتِج الأسـاطير أيضًا، كمَا أنّه ليس بالنِّظامي الاقتصاديّ البحت، بل الاستهلاكي والتّبذيري كذلك. ويجب ألَّا نُقصي أيٍّ من هذه الصِّفات المُميّزة في الإنسان، بل نعْمَل على الوصل فيمَا بينها ونُشكِّل منها حلقة واحدة، لأنَّ منبعَ البربريّة والسُلوكات العنيفة كامِن في هذه التعقيدية، في جوانِب الحُمق والهذيان، التي تجعل من صاحِبها يحقد ويحتقر ويكره ويزدري. ونستطيع أن نعتقدَ أنَّ التّرياقَ المُضادّ للحُمق، يوجد في جوف الفكر، في العقل. بيد أنه لا يمُكن تعريف العقلانيّةRationality بصِيغة غامِضـة تحتوي الالتباس، فنحن نخال أنّنا في بعض الأحيان داخِـل العقلانيّة، في حين أنّنا وفي واقع الأمر داخِل العقلنةRationalism، بمعنى داخِل نَسَق منطقي بالكُلية، لكنه يفتقِر إلى الأساس التجريبي الذي يسمح بتبريره. ويمُكن للعقلنة أن تخدُم الهوى وأن تسوق الإنسان إلى الهذيان[2].

فالعقلانيّة على خِلاف العقلنة، تتحاور مع التجريبية وتنفتِح على أدواتها ومقولاتها، في حين العقلنة ضيّقة النظر، تلتفّ حول ماهو منطقيّ عقلانيّ محض فَحَسَـب، دون تواصُـل مع البنية التجريبية التي يمُكن أن تُقيمَ له تسـويغًا. ولأنَّها أسيرة نسقِها، فإنَّها تتوافق والانفعالات والنَّزعات الذّاتية، ويمُكن لها أن تقودَ الإنسانُ نحو ارتكاب الحماقات والسّخافات وغيرها من التصرُّفات البربريّة. إنَّهُ شأن الحضارة

1 - موران، . 2001، ص 5

2 - المصدر نفسه، ص 6